



كانت جزيرة يوكاتافيا في المحيط الهندي جزيرة قائمة بنفسها في وسط المحيط وكانت محكومة بحاكم عام يساعده مجلس من اعيان الجزيرة ، وكان اهلها على درجة فائقة من المدنية والفنى والترف والرقى الاجتماعى وكان لهم دين خاص بانفسهم ومعبد كبير في وسط المدينة ، يعيش فيه عدد من الرهبان

وعلى الرغم من ان سكان الجزيرة كلهم كانوا ينصتون بخشوع الى العظمت التى يتلقونها في المعبد ، فان الآثام والشور كانت باسطة ظلها على الجزيرة ، وكان الرجل الفاضل هو الذى لا يحتسى من النبيذ كل يوم اكثر من ثلاث زجاجات ، والمرأة الفاضلة هى التى ليس لها اكثر من اربعة عشاق ، والتاجر الفاضل هو الذى لا يبيع اكثر من نصف بضاعته ممشوشا ، والقاضى الفاضل هو الذى لا يرتشى باكثر من السمن والعسل ، والكاهن الفاضل هو الذى لم يكن يستغل ضعف اكثر من امرأة واحدة في الاسبوع !.

وحدث في احد ايام الثلاثاء وهو يوم العطلة المقدسة في جزيرة يوكاتافيا ان اعلن الكاهن في الصباح انه سيتحدث في عظته عن فتن الشيطان ، فاشفق ابليس ان يسمع شيئا عن نفسه غير اللعنات التى كانت تصب على رأسه في جميع انحاء العالم ، ومن شغاه ، أكثرها منسدى من لعابه ، ودخل المعبد مع الداخلين

وقد امتلا قلب الشيطان فرحا عندما رأى ان حوالى مائة فى المائة من المنتظرين لسماع عظة الكاهن لكل منهم حساب معه ، واتم سروره ان يترعع الرباء فى الجزيرة بهذا الشكل الباهر ، وفى هذا العدد الضخم من الناس

ولكن عندما ابتداء الكاهن فى عظته بصوته العريض المؤثر - وكان هذا الكاهن هو كبير الرهبان مقاما وسنا ، وكان هو الشخص الوحيد فى الجزيرة الذى قاوم فتنة الشيطان بمنتهى القوة والعناد والاصرار - وجد الشيطان ان عظة الكاهن الاكبر ليست الا ترجيعا لآلاف اللعنات التى سمعها كل يوم ، والآف التهم التى يحسب نفسه بريئا من بعضها على الاقل ، فتوهج الشرر فى عينه الواحدة ، وتصاعد الدخان من انفه كما لو كان خارجا من مدخنة ، وكان عليه ان يترك الكاهن يثرثر كما يشاء ويذهب الاشراف على بعض عملياته الغرامية المستعجلة فى احد القصور ، لولا ان سمع الكاهن يختم عظته قائلا :

(اطرذوا الشيطان من نفوسكم ومن منازلكم ، ومن جزيرتكم وستعلمون يومئذ فى اى فردوس تعيشون) . . .
فانفجرت اسارير الشيطان فى الحال . وخطر له خاطر .
فبدا لجمهور المصلين ، وصرخ فيهم صرخة اهتزت لها اركان المعبد ثم صاح :

« يا اهل يوكاتافيا . . لقد استمع الشيطان لنداء كاهنكم ، وسيرحل عن ارضكم ، تارككم احرا را فى الفردوس الموعود ، ولن يعود اليكم حتى يشم لحيمة الكاهن محترقة فى لهب البركان »

واختفى الشيطان من المعبد كما ظهر ، وترك الجميع فى ذهول لم يكادوا يفيقون منه حتى وجدوا انفسهم يتعاقنون ، وحتى اذ الاعداء نسي كل منهم بغضه وحقده ، واندفع بعضهم الى بعض بصدور مطهرة ، بريئة من الغل والبغضاء ، والفوارق التى كانت قائمة كالجدران الغليظة بين الطبقات انهارت فى لحظة ، ووجد الحاكم العام نفسه يعانق الكناس كأنه صديقه العزيز

وعندما رأى الكاهن الأكبر هذه الظاهرة الجديدة ، رفع كفيه إلى السماء شاكرًا ، وقد بللت دموع الفرح لحيته البيضاء وأعلنت الأفراح في المدينة سبعة أيام ، وحتى في هذه الأيام التي كانت تكثر في أمثالها الجرائم وينتشر الفساد ، لم تسجل دوائر الشرطة فيها مخالفة واحدة للقانون ، والحديقة العامة لمظلمة التي كانت ملجأ للعشاق المستهترين خلت لأول مرة منذ إنشائها من كل ما كان يراه الكاهن الأكبر صفعات على خد الفضيلة ، وآيات مخجلة على تدهور الأخلاق

واقفرت الحانات والمقاهي والملاهي ، وقضى أصحابها الأيام السبعة يمضون أصابعهم ، ويتدمرون هم من الرائحة الكريهة التي تبعث من دنان الخمر فأراقوها على التراب بتسامح ، وبلا حزن على المال المفقود ، واغلقوا حاناتهم وانصرفوا إلى منازلهم غير آسفين .

وقضاة المحاكم ومحاموها ، وعمالها قضوا نفس الأيام بلا قضايا وحتى القضايا المتأخرة تلاشت من الأوراق ، فاغلقوا محاكمهم ، وسلموا مفاتيحها للمحاكم العام

والحاكم العام نفسه وقف في مجلس الأعيان ، وخطب فيهم شاكرًا إياهم على الجهود التي بذلها في معونته أثناء العيد البيفيس ، ثم أعلن إرفض المجلس ، وتسريح الجيش والشرطة وإلغاء الضرائب التي لم يعد هناك مبرر لجبايتها من الناس

ثم أغلق المجلس ودفن مفتاحه في حفلة باهرة تحت عتبة الباب مع وثيقة تاريخية بتاريخ وطبيعة هذا التطور الغريب ، ثم طلب مجموعة من الصحف الصادرة في نفس اليوم ليدفنوها مع الوثيقة والمفتاح ، فأخبر أن الصحف كلها من يوم رحيل الشيطان ، لم تعد تجد مادة للكتابة ، لا من لأعراض ولا من السرقات والجرائم ، ولم تعد لها طاقة على تزييف المدائح ، فتعطلت كلها عن الصدور !!

واكتفى الحاكم العام بأن زاد على محتويات الحفرة سيفه وصولجانه ثم هال التراب بنفسه على لأشياء المودعة ، وعرج على

السجن ، ففتح أبوابه ، ثم انصرف الى منزله بلا حسرة ولا زهو ،
وكانه فرد من الناس

ولم تعد في الجزيرة حاجة الى المصارف والمرايين ، فاسترد
الناس ودائعهم وحملوها الى منازلهم في غير خوف من العدوان
وافلست في بضعة ايام مئات من الصناعات والمهن التي كانت قائمة
على حاجة سكان الجزيرة الى الكماليات

وحتى تجارة الملابس نفسها وما تفرع منها اضمحلت ، لان
سكان الجزيرة في مثل جوهم الحار ، وجدوا ان هذه الملابس
ما دامت لا تؤدي الوظيفة الاولى وهي الوقاية من الجو ، فقد
اصبحت من تآصل الفضيلة المطلقة في النفوس ، عديمة الجدوى
خصوصا وانها كانت اداة لستر المساويء الجسمية ، واظهار
الحسنات مضاعفة ، وتذكية الشهوات ، وهم في حالتهم
الحاضرة غير محتاجين الى هذه الاداة ، فنزعوها عن انفسهم
وخرجوا رجالا ونساء عرايا في الطريق ، بلا خوف من العيون
الزانية التي طهرتها نفحات العهد الجديد

وكأن الشيطان قد اخذ معه جنوده من الذباب والبعوض والقمل
والبراغيث وما تحمل في بطونها وارجلها من جراثيم ، وترك الناس
انفسهم لرحمة الله ، فأغلق الاطباء عياداتهم ، وعادوا الى
بيوتهم لأول مرة من غير ان يعرجوا على المصارف ليقبضوا
فيها ما جمعه طول النهار . ولكنهم مع ذلك كانوا سعداء ،
وغير نادمين كالعادة على ان العشرين جنيها لم تكن تسعين !
واقفر المعبد نفسه لان الناس لم يعودوا يرون انفسهم في حاجة
الى وساطة بينهم وبين الله

وتكدست الايدي العاطلة في الجزيرة بطبيعة الحال ، ولكن
احدا لم يمت من الجوع ولا احس به ، لان الذي عنده قوت اعطى
الذي ليس عنده ، بلا من ولا شفاعة ولا كتابة في الصحف
عن مبرة فلان وكريم علان !

والمناجر الوحيدة التي ظلت على عهدهما هي مناجر الخبز والطعام ، وحتى هذه قصرت عملها على تموين السكان بما لم يعودوا في حاجة الى اكثر منه من مطالب الجسد الضرورية .
بغير ترف ولا سرف ولا فتك بطير ولا حيوان ، ولم يعد في الجزيرة خيانة ولا رياء ولا حسد ولا نميمة ولا كذب ولا كبرياء ولا طموح الى ما في يد الناس

ولم تعد امرأة تسال زوجها اين كان ؟ وشبهدت فتاة تقبل حمايتها في احدي النوافذ ، ورضى كل رجل عن امراته . وراضيت كل امرأة عن بعلمها ، وتزوجت التي لم تجد زوجا ، وتزوج من اقبح فتاة الشاب الذي لم تكن تملا عينه غير بنت السلطان !
وبدت الفضيلة على وجسه الجزيرة سافرة كصبح الربيع ، جميلة كالبحور ، آمنة كحمامة الحرم ، عظيمة كالملكوت الاعلى الذي هبطت منه ، ضاحكة العين والسن والفؤاد .

ولكن شيئا فشيئا وبانعدام روح التنافس والطموح ، وافول النجم الذي كان الشيطان يشرق به في حياة كل رجل ليدفعه الى المجد ثم يحطم عنقه على احدي مراقبه ، اخذت ثروة الجزيرة العامية تنحط ، كما اخذ مستوى الجمال في الجزيرة يتدهور بفناء الحاجة الى وجوده ، وبفقدان الزخارف المزيفة التي كانت تؤلف ثلاثة ارباعه

وبانحطاط مستوى الجمال ، وانعدام المتعة بخطف الثمر المحرم انتهى عهد المحظيات القصيرة المختلصة ، والمملوءة بالحب والسمادة والترقب والانتظار . ولم يعد هنالك وحي للشعر والفن والادب ، فأجذبت قرائح الشعراء والادباء والفتانين ، وخبثت لشعلة التي كانت تتألق في نفوسهم وياتوا برعوس افرغ من رعوس حملة الاثقال

وفقدت زهرة الحب اشواكها وغلاثلها فلم تعد لها قيمة !
وبات فراش الزوجية عبارة عن معامل تفريخ البسنيين ، تماما مثل معامل تفريخ الدجاج

والفضيلة العظيمة الجميلة نفسها اخذت بالتدريج تفقد جلالها بحكم الدوام ، وانعدام القرين السيء الذى كان يسبق عليها الجلال وباتت كالصحة على رءوس الاصحاء ، ما قيمتها اذا لم تكن هناك علل ولا اسقام ؟ . . .

والحياة اصبحت بالتدريج ، من غير ملح ، سمجة سماجة الكنافة فى اخرى ليالى رمضان ، اصبحت عبارة عن طعام ونوم ، ونوم وطعام ، وكفاح يسير فى سبيل الرغيف ، لاتقوى عليه جارحة ولا يتوهج عليه احساس ، واندفعت الجزيرة الى الذبول والضمور والزوال

ولكن الناس مع ذلك كانوا قانعين بحياتهم هذه قناعة البهائم ، لان القناعة هى ركن من اركان الفضيلة

والشخص الوحيد الذى كان يرقب هذه الحالة بقلق هو الشخص الوحيد الذى لم يكن واقعا قبل هذه المحنة تحت تأثير الشيطان ، اعنى كاهن المعبد

اشتغل لما لم يعد له عمل فى المعبد بزراعة البطاطس وتربية الحمام

وكل التطور الذى مر به الجزيرة باركته نفسه ، الا منظر الرجال والنساء عرايا فى الطريق فظل كاسيا كما كان

وعندما كانت تمر به امرأة عارية كان يفض من بصره ، ويحيد عن الطريق الذى تسير فيه .

ولكن شيئا فشيئا بدأت عينه تتطلع من فروج اصابه الى هذه الاجسام ، وشيئا فشيئا بدأت عينه تحترق بشغف الحرمان

وشيئا فشيئا بدت روحه تصرخ فى اذنيه فى طلب المتاع ولكن الشعلة المتقدة فى نفسه ظلت بلا وقود لانه مامن امرأة

فى الجزيرة كانت تفهم فى هذه الايام لغة الفجور والفساد واصبح الكاهن فى الجزيرة هو الرمز الوحيد للضعف

لبشرى ، اى لسطوة الشيطان واخذ الكاهن يهيم على وجهه فى الجزيرة وساقته

قدماء في احدى الليالى الى رأس الجبل ، الى فم البركان فتذكر
في الحال كلمة الشيطان

ولكنه فر من فم البركان ولحيته في يده كأنه يخشى عليها
من السنة الهيب ، وظلت روحه عدة ايام معتركا لليأس والتردد ،
ايدعو الشيطان وينقد نفسه من عذابها ، ويضع حدا لانهيـار
الجزيرة ، ام يضحي بنفسه وبالجزيرة في سبيل الخير
والتقوى والفضيلة ! !

لكن المعركة لم تدم طويلا ، فقد انتصر الشيطان في النهاية
وذهب الكاهن الى فم البركان فقص لحيته غير آسف ، وقذف
بها الى النار صارخا صراخا لمجنون :

ابليس ، ابليس ، اين انت يا ابليس ؟

ورد عليه صوت لم يكن قادما من بطن البركان ، ولا من ناحية
السماء ولا من قرارة الوادى ، ولكنه كان خارجا من بين شفتى
الكاهن نفسه ، ، صوت مهربد يناديه

- ليك ، ليك يا مولاي ! !